المحور الأوّل: الإنـــســـان

الدّرس الأوّل: الــحاجــات والــدّوافــع والــميــول

الــمـقـدّمـــة:

لقد شغلتِ الميول حيّزًا كبيرًا في العلوم الإنسانيّة، ولا سيّما في علم النّفس، لفهم سلوك وتصرّفات الكائنات الحيّة وتفسيرها، فاختلف العلماء حول طبيعتها وتعريفها وكيفيّة دراستها.
كلّ تصرّفات الكائنات الحيّة ومنها الإنسان هي تلبية أو تعبير عن ميلٍ ما. تمتاز الميول **بالبساطة** لأنّها في أساسِ كلّ تصرّفات الكائن الحيّ؛ ولأنّها تشمل بشكلٍ عامٍّ كلّ الكائنات الحيّة، وتُعتبر **أصلًا ومنطلقًا** لتفسير الحياة النّفسيّة وانعكاساتها على الجسد. كثيرون خلطوا بين مفاهيم وتعابير الميل والحاجات والرّغبات والغرائز على أنّها مرادفات، لذلك وَجَبّ تعريفها وتمييزها. **فالميل**، هو الأصل لكلّ ما عداه، فهو توجّه هادفٌ ولاواعٍ، يظهر على شكلِ حاجاتٍ ورغباتٍ وغرائزَ. أمّا **الحاجة**، فهي نزوع فيزيولوجيّ لا يتمّ إشباعه إلّا بعد أن يحصل على غرضه الخاصّ (الإشباع). وتصبح الحاجة رغبة إنسانيّة، عندما تكون مقرونة بشرطٍ. وتُعرفُ **الغرائز** بأنّها أعمالٌ فطريّةٌ تظهرُ من خلالِ فعلٍ دون تعلّمه، والغريزة الوحيدة عند الإنسان هي فعل الرّضاعة أثناء فترة الحضانة.
إذن، الميل هو حالة شعوريّة داخليّة كامنة، تتحرّك نتيجة نقصٍ ماديٍّ أو معنويّ.

الإشكاليّات التّي يمكن أن تُطرح عند البحث في الميول:
- ما هي طبيعة الميول، هل هي فطريّة أو مكتسبة؟ (إشكاليّة عامّة)
- هل تُختصر الميول بالحركات، أم أنّها تولد نتيجة الإحساس باللّذة؟ (إشكاليّة خاصّة)
- هل تُعدّ الميول نتيجة تجربة حسيّة، أم أنّها تظهر على شكل حركات؟ (إشكاليّة خاصّة)

١- الــنّظــريّـة الــتّجـريـبيّـــة:

تنتمي هذه النّظريّة إلى الفلاسفة التّجريبيين ومنهم **" كونديـاك"** الّذي يؤكّد أنّ الإحساس هو المبدأ الّذي يُحدّد ويخلق مختلف القوى الرّوحانيّة والعاطفيّة. كما يعتبر أنّ الرّوح شبيهة بتمثالٍ جامدٍ، خالية من أيّة معارفَ أو حاجاتٍ أو إمكانيّات أو قوى كامنة. وما يقبعُ في داخل الرّوح هو الإحساس فقط، وهو المؤهّل للتحوّل إلى ميولٍ وقوى داخليّة... فالإنسان الّذي يُحرمُ من حواسه يبقى كما وُلِدَ كالتّمثال الجامد، وهذا يعني أنّ الإنسان يولدُ من دون أيّ نوعٍ من الميول. وكلّ الميول الّتي تظهرُ عنده يكتسبُها من تجاربه الحسّيّة الّتي يمرّ بها، وخاصّة التّجارب الّتي ينتج عنها شعورٌ باللّذة.
وقد اختصر "كونديـاك" موقف التّجريبيين من الميول بما يلي:

إحســاس ← لــذّة ← رغبـة ← تكـرار ← ميـل

هذا يعني أنّه إذا نتج عن بعض أحاسيسنا شعورٌ باللّذة، فإنّنا نرغبُ في تكرار هذا الإحساس، وعند ذلك يولد عندنا ميلٌ إلى الموضوع الذي سبّب لنا اللّذة.
مثلًا: فإذا مررْنا بالقرب من وردةٍ وشممْنا رائحتها العطرة وشعرنا باللّذة، عندها تظهر عندنا رغبة بالمرور مرّات عدّة للتلذّذ برائحتها. فيولد عندنا ميلٌ لهذه الرّائحة. وكذلك بالنّسبة للطعام وغيره ...

وقد اعتبر الفيلسوف اليونانيّ **أرسطو** أن الإحساس يكمن في أساس طلب اللّذة عند الحصول على موضوع محدّد. فالإحساس هو المُحرّك الذي يدفع الإنسان نحو الموضوع الذي يشتهيه...

- نقـد النّظريّـة التّجريبيّـة:

واجهت هذه النّظريّة العديد من الإنتقادات، أبرزها:
1- لا يمكن الإنكار أنّ الحالة المعاشة والحسيّة يمكن أن تولّد عند الإنسان ميولًا، ولكن التّجريبيين اختلط عليهم الأمر، فلم يميّزوا بين الميول العضويّة التي تُخلَق مع الإنسان، والتي تحفظ له حياته، وبين الرّغبات الّتي تعبّر عن ميول واعية يُدرك صاحبُها غايتها. مثلًا: إنّ شرب الماء يؤدّي إلى إشباع حاجة فطريّة، ولكنّ شرب العصير هو نتيجة أدّت التّجربة الحسيّة دورًا في وجودها.

2- هذه النّظرية غير مقبولة أيضًا، لأنّ اللّذة لا يمكن أن تتحقّق، إلّا إذا كان هناك ميل أصلًا. فالميل أوّلًا، ومن ثمّ الرّغبة واللّذة. وعليه فالميول سابقة على الأحاسيس والإنفعالات. مثلًا: إذا وضعنا في فم طفل نقطة من العسل، فإنّ الطّفل يعبّر عن شعوره باللّذة، وإذا استبدلنا بها شيئًا مالحًا، فإنّ الطفل يُعبّر عن امتعاضه، فلو فكرتهم صحيحة لما استجاب الطّفل.

3- تركيز الفلاسفة التّجريبيين على الحواس كمصدر وحيد للمعرفة، أوقعهم في الكثير من الصّعوبات. اعتبرها البعض بدون أيّة قيمة، والبعض الآخر أخذ بها جزئيًّا ورفض الباقي.

٢- الـنّظريّـة الـسّلوكيّـة: نظريّة ريـبو:

" ريبو " عالم نفس فرنسيّ، حاول أن يدرس الظّواهر النّفسيّة عبر الملاحظة والتّجربة، وتبنّى منهج المدرسة السّلوكيّة في دراسته للظواهر النّفسيّة.
يعتبر " ريبو" أن ميول الكائنات الحيّة وخاصّة الإنسان، تظهر بوضوح في حركاته وسلوكه. فإن أيّ ميل يتمُّ التّعبير عنه بوضوح من خلال الحركات الّتي يقوم بها. وقد عرّف الميل بأنه ليس شيئًا غامضًا، بل هو حركة حاصلة أو حركة في حالةِ تولّد أو توثّب وتهيّؤ للحركة قبل حصولها بالفعل. يردّه إلى آليّة فيزيولوجيّة ترتسم على ملامح الوجه وأطراف الجسد.

ميـل ← إحسـاس ← لـذّة ← رغبـة...

مثلًا: الحيوان المفترس الّذي يمزّق فريسته بأنيابه ينفّذ ميلًا. عندما يستعدّ للهجوم على فريسته، يرسم حركة الهجوم بجسده قبل التّنفيذ. وعندما يلحق بفريسته، يكون في حالة إنطلاق وتسارع في الحركة. وبعد أن يُشبع حاجته تتوقّف حركته الأولى ويرتاح. هذا يعني أنّ كميّة الحركة تختلف في كلّ مرحلة، مع العلم أنّه يُمكن ملاحظة الحركة واحتساب دقّتها بشكلٍ يسمحُ بدراسة الميل وقوّته بدقّة أيضًا.
من خلال هذا المنظور، فإنّ مجموع الحركات المتكرّرة الّتي تشكّل عادةً من العادات يُمكن أن تنقلب إلى ميل. فالمحاولات الأولى الفاشلة التّي يقوم بها المدمن على التّدخين أو على شرب الكحول، هي الّتي تؤدّي بفعل التّكرار إلى ولادة بعض الميول العضويّة والحاجات الجديدة.

كما أكّد الطبيب الفرنسي **" بيار جانيه"** أنّ كلّ فعل أو سلوك يقوم به الإنسان هو نتيجة وجود ميل لديه. ويمكن للميول أن تحدّد مسارات سلوكيّة مختلفة: - يمكن لأحد الميول أن يدفع بصاحبه إلى اعتماد سلوكين مختلفين. كما يمكن لنوعين مختلفين من الميول أن يظهرا في نفس المسار.
مثلًا: * الميل إلى المطالعة يمكن أن يأخذ بصاحبه إلى صالون البيت أو إلى المكتبة.
* في مهنة الخياطة، يمكن أن تعبّر عن ميل إلى جمع المال، أو الميل إلى اصلاح ثياب العائلة.
باختصار، فإن أي سلوك يقوم به يُعبّر عن ميلٍ واحدٍ أو أكثر.

- نــقد نــظريّـة ريــبـو:

نجحت المدرسة السّلوكيّة في تحويل دراسة النّفس إلى علم يركّز على ما يقوم به الإنسان من تصرّفات وردود فعل. لكنّها واجهت العديد من المشاكل، منها:

1- انتقد عالم النّفس الفرنسيّ " موريس برادين" نظريّة "ريبو" مميّزًا بين **"الميل إلى" و " الميل نحو".**
" الميل إلى " ليس ميلًا في الحقيقة، لأنّه لا يحمل هدفًا إلى موضوع، بل هو مجرّد تفادي شيءٍ ما (كحركة اليد لحماية العين من الأذى). و" الميل نحو " فهو الميل الحقيقيّ أي التّوجّه نحو غرضٍ يُحقّقُ الإشباع.

2- الحركات المتكرّرة لا تكفي لتوليد الميول، وما كانت العادات يومًا لتصبح ميولًا. وإن تكرار هذه الأفعال سهوًا لا تدلّ على أنّها أصبحت ميولًا لأنّها تتلاشى بعد الممارسة. (العزف على البيانو)

- تــوليــفــة:

إنّ دراسة الميول لا يُمكن أن تقود الباحث إلى حقائق نهائيّة ككلّ الظّواهر الإنسانيّة؛ لأنّ الإنسان **جسدٌ** كبقيّة الكائنات الحيّة، تتحكّم به الغرائز اللاواعية، ومن جهة أخرى هو **كائن اجتماعيّ ثقافيّ**، ولا يمكن تجاهل **دور المجتمع** في تحديد ميوله وشكلها، كما لا يجوز تجاهل **دور العقل** في بلورة الميول وتنميتها.
وبالرّغم من أنّ كلّ نظريّة تطرّقت إلى دراسة الميول، ساهمت في الكشف عن جانب أو جوانب مهمّة في فهم الإنسان بشكلٍ أفضل. ولكن، تبقى الظّواهر الإنسانيّة حتّى يومنا هذا عصيّةً على تفسيرها بشكلٍ نهائيّ وموثوق.
في النّهاية، نرى أنّ الميول ليست وقائع ذهنيّة ولا اجتماعيّة، بل هي وقائع نفسيّة فاعلة، وليست لدى الإنسان مجرّد قوّة، بل هي حياة.